Mesopotamian journal of Arabic language studies
Vol.2024, **pp**. 42–53
DOI: https://doi.org/10.58496/MJALS/2024/005: ISSN: 3005–8910
https://mesopotamian.press/journals/index.php/MJALS

ازدهار الحياة الفكريّة والأدبيّة في العصر العبّاسي

The flourishing of intellectual and literary life in the Abbasid era

مرتضى كامل [١،*]، وداد الايوبي [١]
[١] قسم اللغه العربية وادابها اختصاص الادب العربي ,جامعة الجنان، كلية الاداب والعلوم الانسانيه ، لبنان.

Mortada Kamel [1, *], Widad Al-Ayyubi [1]
[1] *Department of Arabic Language and Literature Specialization in Arabic Literature ,Jinan University Faculty of Arts and Humanities, Lebanon.*

الخلاصة

يتناول هذا البحث عوامل ازدهار الحياة الفكرية والأدبية في العصر العباسي، والذي امتد من عام ١٣٢هـ إلى ٦٥٦هـ. يشير البحث إلى أنّ العصر العباسي كان من أطول العصور الإسلامية وأكثرها ازدهاراً من حيث الإنتاج العلمي والأدبي، على الرغم من الأزمات السياسية والاجتماعية التي شهدها. وقد تمّ إرجاع هذا الازدهار إلى عدة عوامل، منها الازدهار الاقتصادي، الذي مكّن الخلفاء من دعم العلماء والأدباء بسخاء. كما كان للعوامل الدينية دور كبير في تعزيز هذا الازدهار، حيث نشطت العلوم الدينية مثل علم الفقه والحديث. علاوةً على ذلك، ساهمت حركة الترجمة في نقل العلوم والفلسفات من الثقافات الأجنبية إلى اللغة العربية، مما أثر بشكل كبير على الفكر والأدب العباسي. ومن خلال دراسة الوسائل التي ساهمت في تحقيق هذا الازدهار، مثل اللغة العربية، ودور العلم كالمدارس والمساجد والكتاتيب، يمكن القول إنّ العصر العباسي مثّل نقطة تحوّل في تاريخ الأدب والعلم العربي.

ABSTRACT

This research deals with the factors behind the flourishing of intellectual and literary life in the Abbasid era, which extended from 132 AH to 656 AH. The research indicates that the Abbasid era was one of the longest and most prosperous Islamic eras in terms of scientific and literary production, despite the political and social crises it witnessed .This prosperity was attributed to several factors, including economic prosperity, which enabled the caliphs to generously support scholars and writers. Religious factors also played a major role in promoting this prosperity, as religious sciences such as jurisprudence and hadith became active. Moreover, the translation movement contributed to the transfer of sciences and philosophies from foreign cultures into the Arabic language, which greatly influenced Abbasid thought and literature. By studying the means that contributed to achieving this prosperity, such as the Arabic language, and the role of science such as schools, mosques, and katabs, it can be said that the Abbasid era represented a turning point in the history of Arabic literature and science.

Keywords

الكلمات المفتاحية

العصر العباسي، الفكر الأدبي، حركة الترجمة، المدارس العباسية، اللغة العربية

The Abbasid era, literary thought, the translation movement, Abbasid schools, the Arabic language

Received	Accepted	Published online
استلام البحث	قبول النشر	النشر الالكتروني
15/2/2024	25/4/2024	23 /5/2024

*Corresponding author Mortada_8095@gmail.com

CC BY

١. مقدمة

يمتد العصر العبّاسي من عام ١٣٢هـ إلى ٦٥٦هـ، ويعدّ من أطول العصور السّياسيّة التّاريخيّة للمسلمين، وهذا ما يجعل الإلمام بجوانبه السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثّقافيّة أمراً صعباً، و((كان في مقدّمة ما تطلّع إليه بنو العبّاس التّمركز في حاضرة جديدة بعيداً عن دمشق موطن الأمويين.. وقد آثر الخليفة الثّاني أبو جعفر المنصور[1] لذلك موقع قرية على دجلة تدعى بغداد على مقربة من مدينة بابل القديمة، واتّخذها عاصمة لملكه وأطلق عليها لقب دار السّلام مقتبساً ذلك من القرآن الكريم.. وابتنى فيها القلاع والجسور، وأقام حولها الأرياض والسّدود ونشر في ربوعها الشّوارع والأسواق. ثمّ ما لبثت المدينة أن عمرت بمئات المساجد والمكتبات والأسواق والمنتزهات فأمّها العلماء والأدباء والمهندسون والصّنّاع ثمّ تعاظم شأن بغداد حتّى ..أصبحت موئل الحركة الفكريّة والعلميّة والأدبيّة بلا منازع. وقد ظلّت البادية حتّى ضحى هذا العهد ترفد المدن والحواضر بمواد اللغة والأخبار، والخطب والأشعار بوصفها موطن الأصالة ومنبع الإبداع.. ويعدّ العصر العبّاسي أزهى العصور العربيّة حضارة ورقيّاً، كما أنّه أطولها زمناً، إذ امتدّ حتّى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، حين تمكّن هولاكو المغولي بجحافله .. من اجتياح بلاد العراق والشّام والقضاء على الدّولة العبّاسيّة في بغداد التي دامت ما يزيد على خمسة قرون)).[2]

وقد ازدهرت الحياة في العصر العبّاسي في مختلف جوانبها الفكرية والعلمية والأدبية والثّقافيّة على الرّغم ممّا تخلّل ذلك العصر من اضطرابات سياسيّة أدّت إلى تراجع مستويات الحياة الاجتماعية، إلّا أنّ ((التّفكّك السّياسي لم يصطحبه بالضّرورة تقهقر حضاري ولا تخلّف علمي، بل إنّ الفكر العربي الإسلامي، بما أوتي من قوّة دافعة أكسبته إيّاها القرون الأولى الوطيدة، استطاع أن يمضي في طريق النّضج والازدهار ويغمر الأرض بنور المعرفة وألق الإبداع. فقد تعدّدت مراكز الإشعاع الحضاري، إضافة إلى مدن العراق، فكانت مكّة والمدينة في الحجاز، والفسطاط والقاهرة في مصر، وحلب ودمشق في الشّام، والرّي وهمذان في فارس وبخارى وسمرقند في ما وراء النّهر.. وكان طبيعيّاً في غمار هذا الوضع السّياسي والاجتماعي أن ينطوي ذلك المجتمع الجديد على تمازج في العادات والثّقافات، وأن يعزّز هذا العصر أصنافاً من العلوم وألواناً من الآداب، وأن يعكس ذلك على كلّ صعيد في الحياة العامّة وفي جملتها الحياة الأدبيّة واللغويّين ينتشرون في حواضر العراق ويجتمعون في مدنها، حتّى اكتظّت بهم الكوفة والبصرة فضلاً عن بغداد، وفي هذه المراكز العلميّة والأوساط الأدبيّة قامت حركة تدوين رائدة لم يكن لمثلها نظير)).[3]

وقد أدّى توسّع الرّقعة الجغرافيّة في العصر العبّاسي التي امتدّت من بلاد الهند والسّند إلى أقصى المغرب والأندلس، نتيجة الفتوحات الإسلاميّة ((إلى خلق بعض الألوان والطّعوم المتمايزة لدى بعض الشّعراء، غير أنّ هذه الملامح لم تبلغ المدى الذي يفضي إلى إبداع أدب إقليمي. فقد ظلّت عناصر التّوحيد أقوى من عناصر التّباين، وذلك لأسباب كثيرة، لعلّ أهمّها طبيعة العرب المحافظة التي تتجلّى في نزعتها السّلفيّة وحرصها على سماتها القبليّة وموروثها الشّعري، ومنها سلطان اللغة العربيّة الذي ينطوي على معطيات رزينة من التّفكير وأنماط خاصّة من مناحي التّصوير وأساليب التّعبير، فضلاً عن الافتتان بالقرآن الكريم وهالته المقدّسة في نفوس العرب على اختلاف جموعهم وتباعد بلدانهم، ثمّ ما يتّصل بذلك من تعلّق روحي بالحجاز، معقل الفصحى ومهبط الوحي..))[4]

وبذلك فإنّ هذا العصر ((شهد نهضة علميّة تظهر واضحة المعالم عبر تاريخ العرب الطّويل بروزاً لافتاً للنّظر، مثيراً لكثير من التّساؤلات للوهلة الأولى وللنّاظر من بعيد إلى أسباب هذه النّهضة الكبيرة.. هذا التّطوّر العلمي وهذه النّهضة الثّقافية كانت نتيجة طبيعيّة لأسباب كثيرة منها: أوّلها: أنّ حكّام هذا العصر كانوا حريصين على العلم، مشغوفين به، مدركين لقيمته وأهمّيّته، لذا شجّعوا العلماء، ووفّروا لهم سبل النّهوض بالعلم ونظروا إليهم نظرة احترام وتقدير، وثانيها: أنّ بيت مال المسلمين كان عامراً بالأموال، مملوءاً بالخيرات، فلم يصادف الحكّام حاجة أو عوزاً يجعلهم يقدمون على العلم غيره من الأمور التي تحتاج إلى الأموال، خاصّة وأنّهم كانوا يحتكرون الأسلوب الذي ينفق به المال العام، والمصارف التي ينفق فيها، ثالثها: أنّ عنصراً بشريّاً ذا حضارة، وثقافة قد حمل عبء دعوة بني العبّاس حتّى أوصلهم إلى الحكم، حتّى إذا وصلوا نقل إليهم علمه وحضارته، لذا كان ضروريّاً وطبيعيّاً أن نرى هذا الازدهار العلمي والثّقافي الذي عمّ العصر كلّه))[5]، هذه العوامل وغيرها سنحاول استعراضها في السّطور الآتية

([1])هو عبدالله المنصور بن محمد بن علي بن عبدالله (٩٥هـ - ١٥٨هـ)، هو الخليفة العباسي الثّاني والمؤسس الحقيقي للدّولة العبّاسيّة.

([2])عمر ، ياسمينة ، عمر، ياسمينة، خصائص الشّعر في العصر العباسي، مجلة وادي النيل، ع٨، ٢٠١٥، مجلة وادي النّيل، ع٨، ٢٠١٥، ص٢٩٩.

([3])عمر، ياسمينة عمر، ياسمينة، خصائص الشّعر في العصر العباسي، مجلة وادي النيل، ع٨، ٢٠١٥، ص٣٠٠-٣٠١.

([4])عمر، ياسمينة عمر، ياسمينة، خصائص الشّعر في العصر العباسي، مجلة وادي النيل، ع٨، ٢٠١٥، ص٣١٥.

([5])فيض، محمد، أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان، ص٢٠٠.

٢. عوامل الازدهار

١. ازدهار الحياة الاقتصاديّة:

يعد الجانب المالي عامل قوّة لأي دولة من الدّول، وفي أي عصر من العصور، ((وقد قيل لبزرجمهر: العلماء أفضل أم الأنبياء؟ فقال: العلماء فقيل له: فما بال العلماء بأبواب الأغنياء أكثر من الأغنياء بأبواب العلماء؟ فقال: لمعرفة العلماء بفضل الغني وجهل الأغنياء بفضل العلم)).[1]

وقد كان دخل مال المسلمين في العصر العبّاسي عاملاً من عوامل ازدهار الحياة في ذلك العصر، ولاسيما على مستوى الحياة الأدبيّة والفكريّة، إذ إنّ هارون الرّشيد[2] ((قد بلغ المحمول إليه في كلّ سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضّة، وعشرة آلاف ألف ديناً من الذّهب، ما عدا الغلّات والمصنوعات، فحمل النّاس كثرة المحمول كلى أن يعدوه بالوزن لا بالعدد، فيقولون: إنّه يبلغ ستّة آلاف أو سبعة آلاف قنطار من الذّهب)).[3]

وقد أنفق الخلفاء العبّاسيّون ((على الثّقافة والعلم بأيد سخيّة، لم يبخلوا على العلماء والمصنّفين، ولم يقصروا في أعطياتهم، وجعلوهم يعيشون عيشة تشبه عيشة الملوك، يتنعّمون بنعيم الدّنيا المتاح كلّه، يأكلون مآكل الخلفاء، ويتمتّعون بما يتمتّع به الحكّام أنفسهم..)).[4]

فقد كان الرّشيد كثير العطاء للأصمعي ولأبي يوسف القاضي، وللكسائي، ولأبي عبيدة معمر بن المثنّى، وغيرهم من العلماء، بجانب غيرهم من الشّعراء، والمغنّين والكتاب.[5]

وكذلك كان المأمون ، الذي أجزل العطاء لأهل العلم والنّباهة والفن، إذ إنّه كان يدرك قيمة علمهم، وضرورة إغراقهم بالمال، كي يتفرّغوا لعلمهم وفنّهم لأنّ الكفاية من أهم الأمور التي تعين على تحصيل العلم.[6]

كما أنّ المأمون أمر الفرّاء أن يؤلّف ما يجمع به أصول النّحو، وأمر أن يفرد بحجرة من حجر الدّار، ووكّل به جوارياً وخدماً يقومون بما يحتاج إليه، حتّى لا يتعلّق قلبه، ولا تتوق نفسه إلى شيء، وصير له الورّاقين، وألزمه الأمناء والمنفقين، فكان يملي والورّاقون يكتبون، حتّى صنّف الحدود في سنتين، وأمر المأمون بكتبه بالخزائن.[7]

وإذا ما وصلنا إلى عصر المتنبّي نجد أنّه قد عاش في بلاط الأمراء القادة الذين أغدقوا جزيل العطاء على الشّعر والشّعراء، وكان للمتنبّي مكانته المميزة في هذا المشهد، ويمكن أن نقف هنا عند مدحه لسيف الدّولة الحمداني، من ذلك أنّه قال قصيدته التي مطلعها:[8] (من البحر الطّويل)

على قدر أهل العزمِ تأتي العزائمُ

وتأتي على قدرِ الكرامِ الكرائمُ

ومناسبة هذه القصيدة أنّ "سيف الدّولة قد سار نحو ثغر الحدث لبنائها، وكان أهلها قد سلّموها إلى الدّمستق بالأمان سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فنزلها سيف الدّولة يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأخرى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وبدأ من يومه فوضع الأساس وحفر أوّله بيده، فلمّا كان يوم الجمعة نازله الدّمستق في نحو خمسين ألف فارس ورجل، ووقع القتال يوم الاثنين، يوم انقضاء جمادى الآخرة، من أوّل النّهار إلى العصر، فحمل عليه سيف الدولة بنفسه في نحو خمسمائة من غلمانه، فظفر به وقتل ثلاث آلاف من رجاله وأسر خلقاً كثيراً، فقتل بعضهم. وأقام حتّى بنى الحدث، ووضع بيده آخر شرطه منها يوم الثّلاثاء لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب فقال هذه القصيدة يمدحه وأنشده إيّاها في ذلك اليوم في الحدث".[9]

ومنها يقول:

وتَعظُمُ في عينِ الصّغيرِ صَغارُ

وتَصغُرُ في عينِ العظيمِ العَظائِمُ

([1])ابن قتيبة، عيون الأخبار، مطبعة دار الكتب المصريّة، ط١، ١٩٣٨، مج٢، ص١٢٢.

([2])هو أبو جعفر هارون بن محمد بن المهدي بن عبّاس الهاشمي القرشي (١٤٩ هـ - ١٩٣هـ)، وهو الخليفة العبّاسي الخامس ولد في الرّي وتوفي في مدينة طوس.

([3])المدور، جميل، المدور، جميل، حضارة الإسلام في دار السلام، المطبعة الأميريّة، بولاق، المطبعة الأميريّة، بولاق، ص١٩٣٧، ص١٤١.

([4])فيض، محمد، أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان، ص٤٨.

([5])فيض، محمد، أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان، ص٥٠.

([6])العسكري، الحثّ على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، تحقيق: عبد المجيد دياب، مطبعة دار الفضيلة، ص٥٢.

([7])ابن خلّكان، وفيّات الأعيان، ج٥، ص٢٢٦.

([8])البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ص١٢٣٠.

([9])الكبيسي، حمحان، القائد سيف الدّولة الحمداني، منشورات وزارة الثّقافة والإعلام، بغداد، ١٩٨٩، ص٢٩.

يكلِّفُ سيفُ الدّولةِ الجَيشَ همهُ
وقد عجزت عنه الجيوشُ الخضارِمُ

فالشّاعر يفتتح قصيدته المدحيّة بحكمة يؤكّد من خلالها أنّ كلّ شيء بمقدار وعندما يعظم الخطب فإنّ من يحلّه هو أعظم منه، ومن ثمّ ينتقل إلى مدح سيف الدَّولة، ومن الملاحظ أنّ المتنبّي قد بلغ مكانة عالية عند القوّاد الذين أغدقوا الأموال على الشّعر والشّعراء.

٢. العوامل الدّينيّة:

كانت العوامل الدّينيّة واحداً من أهم أسباب ازدهار الحياة الفكريّة والأدبيّة في العصر العبّاسي، إذ عني المسلمون في ذلك العصر في خدمة دينهم وتعلّمه وتعليمه ونشره، فانشغل العلماء بالعلوم الدّينيّة، مثل علم القراءات، وكذلك في علم التّفسير، وفي علم الحديث نشطت في ذلك العصر ((حركة الجمع والنّقد، وتمييز الصّحيح من الضّعيف طائفة من أئمّة الحديث الذين ظهروا في هذا العصر فكان بذلك خير العصور، وفيه ألفت أهم كتب الحديث،)).[1] ومن ثمّ فقد اشتدّت الحاجة إلى علم الفقه في العصر العبّاسي؛ لأنّه ((ينظّم المعاملات ويضع التّشريعات التي تنظّم حياة الأفراد وعلاقتهم بعضهم ببعض من ناحية وعلاقتهم بالدّولة من ناحية أخرى فضلاً على أنّه يوضّح التّعاليم التي يجب أن يتّبعها النّاس في شؤون دينهم. وكان من أثر تشجيع الخلفاء العبّاسيّين للفقه والفقهاء واعتمادهم عليهم في أمور الفقه، أن وضع الفقهاء قواعد الفقه بدقّة وعناية في الحياة العمليّة، واختلف الفقهاء في آرائهم الفقهيّة واستنباط الأحكام ومن هنا نشأت المذاهب الفقهيّة)).[2] فقد شهد العصر العبّاسي ظهور أشهر المذاهب الإسلاميّة، ومن أهم العلماء في العلوم الفقهيّة أئمة المذاهب الإسلاميّة الأربعة.[3]

كما كان ((للفرق الإسلاميّة كالخوارج والشّيعة والمعتزلة مذاهبها الفقهيّة التي يؤيّدون بها آراءهم وكان ظهور هذه المذاهب أيضاً سبباً في زيادة أعداد المؤلّفين في الفقه)).[4]

وقد كان المتنبّي عالماً بالدّين إذ إنّه نشأ نشأة متديّنة في الكوفة وتعلمّ أصول الدّين، وكان حافظاً للقرآن الكريم، ويمكن أن نلمح أثر ثقافته الدّينيّة في شعره، وذلك من خلال اطّلاعه على كثير من المذاهب الدّينيّة السّائدة في عصره، من ذلك مذهب السّوفسطائيّة، إذ يقول:[5] (من البحر البسيط)

هَوِّنْ على بَصَرٍ ما شقَّ مَنظَرُهُ
فإنّما يَقظاتُ العينِ كَالحُلُمِ

فالأيام كالأحلام تتكرّر وتزول وكأنّها لم تكن وهو بذلك يدعو إلى تهوين الحياة لأنّها زائلة كالأحلام.

ومن المذاهب التي أشار إليها في شعره أيضاً المذهب الشّيعي، إذ يقول:[6] (من البحر الطّويل)

فإنْ يكنِ المهدي مَنْ بَانَ هَدْيُهُ
فهذا، وإلّا فالهُدى ذا، فما المهدي

فهو هنا يذكر الإمام المهدي عليه السّلام الذي يعد رمزاً بارزاً في الفكر الشّيعي.

٣. ازدهار حركة الترجمة:

ازدهرت حركة التّأليف والتّرجمة في العصر العبّاسي ازدهاراً ملحوظاً، ويعود ذلك إلى جملة من الأسباب تمثّلت في ((السّير بتعاليم القرآن والحديث الشّريف على طلب العلم والمعرفة، كان القوّة الدّافعة وراء ذلك.. اختلاط سائر الأمم بالعرب وقد أدّى إلى التّزاوج فالتّناسل فدم جديد فيه خصائص العربي والعجمي فإذا تفتح وإنتاج في كلّ فن وميدان.. الحاجة الماسّة إلى معرفة علوم ومعارف الأقدمين، فالعهد الأموي كان عهداً بدويّاً في الجملة، فلمّا جاء العصر العبّاسي وأمعن المسلمون في الحضارة وسادت العناصر غير العربيّة، رأوا أن حياة الحضارة لابدّ أن تسند إلى الحضارة، لابدّ أن تسند إلى علم في كلّ أنواع العلوم. رغبة بعض الخلفاء العبّاسيّين في معرفة الأجنبيّة كترجمة كتب الطّب والتّنجيم وذلك للحاجة الماسّة إلى هذين العلمين، فالخليفة المنصور احتاج إليه اطّب لمرضه، بالإضافة إلى اعتقاده بأمور التّنجيم وعلاقة النّجوم بحياة الإنسان ومصيره)).[7] ومن ذلك ((جهود المأمون أعلم خلفاء بني العبّاس في هذا الجانب، الذي شجّع التّرجمة

([1])ملوك، قدور، و وحساين، محمد، دور حركة النّقل والتّرجمة، رسالة ماجستير، الجزائر، ٢٠١٤، ص٥٦.
([2])ملوك، قدور، وحساين، محمد، دور حركة النّقل والتّرجمة، ص٥٨.
([3])فيض، محمد، أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان، ص٤٦.
([4])التّميمي، أزهار، التّميمي، أزهار، أماكن التّعليم في العصر العباسي الأوّل، مجلّة التّراث، سلطنة عمان، ٢٠١٩، ص٥١.
([5])البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ص٦٥.
([6])المصدر نفسه، ص٦٦.
([7])ملوك، قدور، وحساين، محمد، دور حركة النّقل والتّرجمة، ١٥-١٦.

تشجيعاً لم يسبق له مثيل في العصور السّابقة عليه، وإن كان خلفاء عصره من قبله، أمثال المهدي والرّشيد، كان لهم نشاط في ذلك، إلّا أنّه لم يكن بحجم جهوده في مجال التّرجمة على وجه الخصوص..)).[1] فقد كان تشجيع المأمون ((لكلّ العلوم على قدم المساواة ومن هنا جاء الازدهار العظيم في حياة التّرجمة في عصره)).[2]

ومن المترجمين ابن المقفّع[3] الذي كشفت ترجمته عن بلاغته وتمكنه من اللغتين العربيّة والفارسيّة، أمّا أهم الكتب التي ترجمها فهي: ((خداي نامة)) في سير ملوك الفرس، و((آيين نامة)) في أنظمتهم ورسالة ((تنسر))، و((التّاج)) في سيرة كسرى أنوشروان، و((الأدب الكبير))، و((اليتيمة))، و((رسالة الصّحابة)) كما نقل عن لغته بعض ما ترجم إليها من اليونانيّة من كتب أرسطو في المقولات والقياس المنطقي، وغير ذلك من الكتب.[4]

وكذلك حنين بن إسحق[5] الذي يعدّ من أهم مترجمي العصر العبّاسي، وكان يتّبع في ذلك منهجاً علميّاً يقوم على جمع المخطوطات والمقارنة بينها لاستخلاص معاني كل عبارة من الكتاب الذي يقوم من ترجمته.[6]

هذا يعني أنّ المتتبّي الذي اشتهر بسعة اطّلاعه قد اطّلع على مختلف هذه العلوم والمؤلفات المترجمة، ولابدّ أنّه تأثّر بها في شعره وهذا ما سترصده الفصول الآتية.

٤. امتزاج الثّقافات في العصر العبّاسي:

تأثّر العصر العبّاسي بـ ((ثقافة الحضارات المجاورة له من فارسيّة ورروميّة ويونانيّة وهنديّة. فحصل تمازج بين الثّقافة العربيّة وثقافة هذه الحضارات الأعجميّة وقد انعكس هذا التّمازج إيجاباً على العقل العربي ممّا أدّى إلى ازدهار الحياة الأدبيّة. وكان أن امتاز الأدباء في هذا العصر بالأصالة والإبداع والتّجديد في الشّعر والنّثر وذلك نتيجة لصلة الأدباء بالمنطق والفلسفة. وترتّب عن هذه الصّلة امتزاج العقل بالعاطفة في كثير من الآثار الأدبيّة لهذا العصر سواء كان منها نثراً أو شعراً. وهكذا تزايدت القصائد الشّعريّة التي تزدحم فيها الحكم أو إثارة قيّة فلسفيّة وكأنّ الشّعراء في هذا العصر أصبحوا يخضعون شعرهم للعقل أو الفلسفة أو المنطق)).[7]

فقد كان العصر العبّاسي ((عصر العلم والثّقافة والمعرفة.. عجّ بالثّقافات المختلفة، إذ كانت مصادر الحصول على الثّقافة والعلم متوفّرة وميسّرة، وقد عبّ من هذا الزّاد الوفير كلّ من له رغبة في العلم، غنيّاً كان أم فقير اً.. }من ذلك{ انكباب الخلفاء والحكّام وأبنائهم على منابع العلم يغترفون منها، فيتعلّمون اللغة وآدابها، والشّعر وحكمه، والقرآن وعلومه، والحديث متنه وسنده، وغير ذلك من العلوم، ولم يكتفِ الحكّام بالاغتراف من الثّقافات العربيّة وحدها، وإنّما وجدنا كثيرين منهم يدرسون الثّقافات الوافدة، هنديّة كانت أم فارسيّة أم يونانيّة..)).[8]

من ذلك أنّ المنصور ((كان أوّل خليفة قرّب المنّجمين وعمل بأحكام النّجوم، وكان معه (نُوبخت المجوسي) المنجّم، صاحب القصيدة في النّجوم، وغير ذلك من علوم النّجوم وهيئة الفلك، ..وهو أوّل خليفة تُرجِمت له الكتب من اللغات العجميّة إلى العربيّة)).[9]

ومن مظاهر حضور الثّقافات الوافدة في العصر العبّاسي وإسهامها في ازدهار ذلك العصر ما روي عن هارون الرّشيد أنّه قال للكسائي:

((يا عليّ بن حمزة، قد أحللناك المحلّ الذي لم تكن تبلغه همتك، فروِّنا من الأشعار أعفّها ومن الأحاديث أجمعها لمحاسن الأخلاق وذاكرنا بآداب الفرس والهند، ولا تسرع علينا الرّدّ في ملأ، ولا تترك تثقيفنا في خلاء)).[10]

وهذا التّمازج الثّقافي بين مختلف الحضارات في العصر العبّاسي يدلّ على أنّ الأفكار ((قد نضجت، والأذهان قد زادت تنبّهاً إلى علوم الأقدمين بما كان يتقاطر إلى بغداد من الأطباء والعلماء من السّريان والفرس والهنود، وكانوا أهل تمدّن وعلم كما رأيت.. وكانوا يتعلّمون العربيّة ويعاشرون المسلمين ويباحثونهم في تلك العلوم)).[11]

([1])فيض، محمد، أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان، ص٦٠.
([2])هدارة، محمد، المأمون الخليفة العالم، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، ١٩٨٥، ص٢١٦.
([3])هو أبو محمد عبد الله بن المقفّع(١٠٦- ١٤٢هـ) وهو مفكّر فارسي ولد مجوسياً لكنّه اعتنق الإسلام، وعاصر كلاً من الخلافة الأمويّة والعبّاسيّة.
([4])الجهشياري، تصنيف: أبي عبد الله ، كتاب الوزراء والكتّاب، تحقيق: إبراهيم الأنباري، مطبعة مصطفى الحلبي، ١٩٣٨، ط١، ص٢٢١.
([5])هو أبو زيد بن إسحق العبادي ولد عام ١٩٤هـ وهو مؤرّخ ومترجم وكان يجيد إلى جانب العربيّة السّريانيّة والفارسيّة واليونانيّة.
([6])ضيف، شوقي ، العصر العبّاسي الأوّل، ص٥١٤.
([7])حسين، شلوف، حسين، شلوف، شعر الحكمة عند المتنبي بين النّزعة العقليّة والمتطلبات الفنّيّة، رسالة ماجستير، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٦، رسالة ماجستير، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٦، ص٣١.
([8])فيض، محمد، أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان، ص٣٦.
([9])المسعودي،مروج الذّهب ومعادن الجوهر، ج٤، ص٣١٤.
([10])أمين، أحمد، ضحى الإسلام، ج١، ص٢٨٤.
([11])زيدان، جورجي، تاريخ التّمدّن الإسلامي، علّق عليه: حسين مؤنس، دار الهلال، القاهرة، ج٣، ١٥٧.

و((لمّا أفضت الخلافة إلى المأمون .. تغيّر وجه المسألة، لأنّه كان مع فطنته وسعة علمه شديد الميل إلى القياس العقلي، وقد تعلّم وتفقّه وطالع ما نقل إلى عهده من كتب القدماء، فازداد رغبة في القياس والرّجوع إلى أحكام العقل، ويكفينا دليلاً على غوصه في علوم اعتناقه لمذهب المعتزلة، ومعروف صلة المعتزلة بالعلوم اليونانيّة والفارسيّة)).[1]

فقد عرف عن الخلفاء العباسيّين سعة علمهم وثقافتهم، وهذا إن دلّ على شيء، فإنّه يدلّ على أنّ الشّعب الذي يساس من قبل خلفاء علماء مثقّفين، فإنّ هذا الشّعب أيضاً كان ممتزجاً بالثّقافات الوافدة، إذ إنّ ((الثّقافة الفارسيّة رفدت بطاقاتها المادّيّة والمعنويّة وساهمت في ازدهار الثّقافة وتنميتها في شتّى المجالات مساهمة رفعت بمستوى الثّقافة وليس هذا الأثر الشّاسع الأطراف أمارة على الصّبغة الفارسيّة لهذا العصر كما يصفه بعض المؤرخين والكتّاب فحسب، بل هو صدى التّفاعل والتّثاقف الذي دعا إليه الإسلام وهو في الحقيقة مبدأ حضاري، لو تسنّت له الظّروف وطرأت ظاهرة التّعارف والتّعايش، فمن شأنه أن ينمو بكلّ حضارة وثقافة.. لقد تحوّلت.. الثّقافات اليونانيّة والفارسيّة وكلّ معارف الشّعوب إلى وعاء تنصب فيه معارف جميع العناصر في المجتمع الإسلامي وليس هذا انتقاصاً للأدب العربي واستهانة له على أساس التّفاعل المنشود والتّعارف الذي يخلق الحضارات المتقدّمة الرّاقية)).[2]

هذه الثّقافات التي أنتجت كثيراً من أدب الحكمة، والفرق الكلاميّة، ((ودخلت الفلسفة اليونانيّة إلى دوائر المتكلّمين بصفة خاصّة، ثمّ بيئة الفلاسفة كما لقيت مباحث الأخلاق قبولاً وذيوعاً عند المسلمين، لموافقة الكثير منها للمعاني الإسلاميّة والقرآنيّة.. كما شهد هذا العصر ظهور المتكلّمين وأصحاب المذاهب والآراء الذين أفسحوا للفلسفة مجال التّأثير في مذاهبهم الكلاميّة مثل معمر بن عباد السّلمي.. وأبي هاشم الجبائي الذي تناول بالتّحليل صفات الله، وانفرد فيها بمذهب خاص متميزاً به عن المعتزلة.. كما هذا العصر أيضاً ظهور الأشاعرة المعارضين لمذهب الاعتزال والمنكرين كلّ فعل للطبيعة، وكذلك إخوان الصّفا الذين حاولوا المزج بين الفلسفة وتعاليم الدّين)).[3]

وبذلك ((كانت العلوم اليونانيّة والعقل اليوناني من بواعث التّصنيف والاشتغال بالعلوم، وكان العقل الهندي من بواعث الزّهد والحكمة، أمّا الحضارة الفارسيّة فمن بواعث الزّخرفة والتّفخيم والموسيقا، هكذا جرى في العقل العربي وعي علمي شامل، هزّ كيانه هزّاً عنيفاً، ومال به إلى الفطرة والتّقسيم المتسلسل والتّحليل، والتّعليل، وإلى توسيع الثّقافة العربيّة ووضع علوم اللغة على نحو وبيان وعروض، وما ذلك وإلى التّعمّد إلى صناعة علميّة في الصّياغة اللفظيّة والزّخرفة التّعبيريّة)). [4]

والمتنبّي اطّلع على مختلف هذه الثّقافات، بل وعايشها في أوطانها، واللافت في الأمر أنّ المتنبّي ظلّ مفتخراً بعروبته ومحافظاً عليها، وحتّى في بلادهم أكد عروبته، وهذا ما نراه في رائعته التي قالها في شعب بوان الواقعة قرب شيراز من بلاد فارس، إذ يقول:[5] (من البحر الوافر)

مَغاني الشِّعْبِ طِيباً في المغاني
بِمنزلةِ الرّبيعِ مِنَ الزّمانِ

ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها
غَريبُ الوَجهِ واليدِ واللسانِ

ملاعبُ جِنَّةٍ لو سارَ فيها
سُليمانٌ لسَارَ بِتَرْجُمانِ

طَبَتْ فُرْسانَنَا والخَيلَ حَتَّى
خَشيتُ وإنْ كَرُمْنَ مِنَ الحِرانِ

فالمتنبّي هنا يتغنى بمغاني الشّعب وهو في إيران، ويتغزّل بطبيعتها، حتّى إنّه يشبّهها بالرّبيع إذا ما قيس المكان بالزّمان، فإنّ مغاني الشّعب بمنزلة فصل الرّبيع في بهائه وجماله، ومن ثمّ يستدرك المتنبي عائداً إلى عروبته واصفاً، ويكنّي نفسه بالفتى العربي، فهو هنا يلقي الضّوء على عروبته، فلم يصف نفسه بالفارس ولا بالشّاعر، وإنّما هو العربي، وفي ذلك تركيز وتأكيد على عروبته وإن كان في بلاد العجم. فهو غريبٌ عنهم، ليس في شعوره، وإنّما في صفاته الجسديّة،

([1])زيدان، جورجي، تاريخ التّمدنّ الإسلامي، ج٣، ص١٥٩.
([2])أسودي، علي، الأثر الفارسي على الملابس والأزياء وانعكاساته في أدب العصر العبّاسي الأوّل، المنهل، مج٥، ع١،٢٠١٩، ص٢٢٤- ٢٢٥.
([3])حسين، شلوف، حسين، شلوف، شعر الحكمة عند المتنبي بين النّزعة العقليّة والمتطلبات الفنّيّة، رسالة ماجستير، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٦، رسالة ماجستير، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٦، ص٤٩.
([4])زركوك، سميرة، البنى الأسلوبيّة في زهديات أبي العتاهية، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١٦، ص١٠.
([5])البرقوقي، شرح ديوان المتنبي، ص١٤٩٨- ١٤٩٩.

فالعرب عرفوا بخشونتهم وسمارهم وطولهم الفارع وهذه صفات تخلف عن صفات العجم الجسمانيّة، وهو كذلك يختلف عنهم في السلاح، ففي يده سيف، وهم يستخدمون المزاريق، وكذلك لغتهم غير لغته، إلّا أنّ ذلك لم يحُل دون انخراطه فيهم، فهو يمدحهم بوصف بلادهم بأنّها ملاعب جِنّة، ومن المعروف عن العرب أنّها إذا أرادت مدح شيء نسبته إلى الجِن، وفي ذلك مدح عظيم. وما يهمّنا هنا أنّ المتنبّي عايش الثّقافات الأخرى في بلادها وهذا دليل عظيم على تأثّره بتلك الثّقافات وحضورها في شعره.

٥. اهتمام الخلفاء العبّاسيّين بالعلم:

بدأت الحركة العلميّة بمجاليها الفكري والأدبي منذ بدية الخلافة العبّاسيّة، إذ أسهم الخلفاء العبّاسيّين الأوائل في بعث الحياة الفكريّة والأدبيّة وتنشيطها، فقد شجّعوا حركة البحث العلمي بوسائل عديدة، فقد عمل المنصور وغيره ممّن جاؤوا بعده على نقل الذّخائر العلميّة التي تركها الإغريق والرّومان والفرس والهنود والسّريان والأقباط وغيرهم إلى اللغة العربيّة. وفي عصر الرّشيد، نشطت حركة التّرجمة والنّقل، وكذلك في عهد المأمون، نجد جمهرة من المترجمين قد أقبلت على دار الحكمة في بغداد. وقد شجّع الخليفة العالن هذه الحركة العلميّة القويّة، وفتح لها خزائن المال، واستحثّ العلماء على نقل تراث الأمم الأخرى إلى العربيّة. كما تم نقل هذا التّراث الضّخم في الطّبّ والفلسفة والمنطق والأخلاق والسّياسة والفلك والرّياضيّات والتّشريح والنّبات والحيوان وغيرها من العلوم.[1]

كما ظهر اهتمامهم العلمي في اهتمامهم بتعليم أبنائهم وإعدادهم للخلافة، فقد رو الأحمر النّحوي أنّه قد ((بعث إليّ الرّشيد لتأديب ولده محمّد، فقال لي: إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصيّر يدك عليه مبسوطة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرّفه السّنن، وبصّره مواقع الكلام وبدأه، وامنعه من الضّحك إلّا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرّنَّ بك ساعة إلّا وأنتَ مغتنم فيها فائدة تفيده إيّاها، من غير أن تخرق به فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه، قوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما فعليك بالشّدّة والغلظة)).[2]

فمنذ بداية الخلافة العبّاسيّة عُرف عن الخلفاء العبّاسيّين حبّهم للعلم وتقديرهم للعلماء، يقول أبو العبّاس السّفّاح[3]: ((إنّما العجبُ ممّن يترك أن يزداد علماً، ويختار أن يزداد جهلاً! فقال له أبو بكر الهذلي: ما تأويلُ هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: يترك مجالستك ومجالسة مثلك وأمثال أصحابك، ويدخل إلى امرأة أو جارية فلا يزال يسمع سخفاً ويروي نقصاً)).[4]

ومن مظاهر حبّهم للعلم اهتمامهم بالمجالس العلميّة، يقول المسعودي:

((كان المأمون يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثّلاثاء، فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات وأدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم انزعوا أخفافكم، ثمّ أحضرت الموائد، وقيل لهم أصيبوا من الطّعام والشّراب، وجدّدوا الوضوء، ومن خفّه ضيّق فلينزعه، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها، فإذا أتوا بالمجامر، فبخروا، وطيبوا ثمّ خرجوا فاستدناهم حتّى دنوا منه، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبّرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشّمس، ثمّ تنصب الموائد الثّانية فيطعمون وينصرفون..)). [5]

ومن تقديرهم للعلماء ما روي عن الخليفة الواثق[6]، إذ ((دخل هارون بن زياد –مؤدّب الواثق – على الواثق فأكرمه وأظهر من برّه ما شهر به، فقيل له: مَن هذا يا أمير المؤمنين الذي فعلت به ما فعلت؟ قال: هذا أوّل مَن فتق لساني بذكر الله وأدناني من رحمة الله عزّ وجلّ)).[7]

((وقد شجّع خلفاء بني العبّاس العلم والأدب والفن، وكان للشّعر نصيب الأسد من هذا التّشجيع، فعقدوا له المواسم، واستمعوا للقصائد، ومنحوا الجوائز والهبات، وبذلك توفّرت الأسباب لتطوّر الشّعر من اختلاط ثقافي وتشجيع مادّي ومعنوي، فبلغ الشّعر في هذا العصر غاية لم يبلغها قبله ولا بعده)).[8]

وذكرنا أنّ المتنبّي عاش في عصر انهيار وضعف الخلافة العبّاسيّة وتشظّي الدّولة إلى دويلات، كان من أبرزها الدّولة الحمدانيّة في حلب وعلى رأسها سيف الدّولة الذي لم يكن أقلّ اهتماماً بالعلم والأدب من الخلفاء العبّاسيّين، بل إنّ بلاطه قد جمع نخبة من العلماء والأدباء والشّعراء، إذ قيل عنه:

"لم يجتمع قطُّ ببابِ أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشّعر ونجوم الدّهر".[9]

([1])ضيف، شوقي، العصر العبّاسي الثّاني، ص١١٥.
([2])المسعودي، مروج الذّهب ومعادن الجوهر، ص٣٦٢.
([3])هو عبد الله محمد بن علي بن عبدالله (١٠٤- ١٣٦هـ) وهو أوّل خلفاء الدّولة العبّاسيّة.
([4])المسعودي، مروج الذّهب ومعادن الجوهر ، ص١٧٠.
([5])المصدر نفسه، ج٤، ص٤٠٩.
([6])هو أبو جعفر هارون الثّاني الواثق بالله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد (٢٠٠- ٢٣٢هـ)، وهو تاسع الخلفاء العبّاسيّين.
([7])ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك، طبعة دار الفكر العربي، د.ت، ج٦، ص٣٥٤.
([8])عمر، ياسمينة، خصائص الشّعر في العصر العباسي، مجلة وادي النيل، ع٨، ٢٠١٥، ص٣١٧.
([9])الثّعالبي، يتيمة الدّهر، ج١، ص١٦.

وقد أكثر المتنبي من مدح سيف الدّولة الذي قرّبه منه وأغدق عليه، ولعلّ من روائع مدحه أولى القصائد التي قالها المتنبي في مدح سيف الدّولة، إذ يقول منها: [1]

(البحر الطّويل)

تحاربُهُ الأعداءُ وهي عَبيدُه وتدَّخِرُ الأموالَ وهيَ غنائِمُهْ

ويَستكبِرونَ الدَّهرَ والدَّهرُ دونَهُ ويستعظمونَ الموتَ والموتُ خادِمُهْ

وإنَّ الذي سَمّى عليَّاً لمنصفٌ وإنَّ الذي سَمّاهُ سَيفاً لظَالِمُهْ

ومَا كُلُّ سيفٍ يَقطَعُ الهامَ حدُّهُ وتَقطَعُ لِزُبَاتِ الزَّمان مكَارِمُهْ

هذه هي القصيدة الأولى التي رفعت قدر المتنبّي لدى سيف الدّولة، ولا سيما في هذه الأبيات التي تصوّر الممدوح في أبهى صورة وأعظمها، فأعداؤه عبيده، والأموال غنائمُه، والدّهر دونه والموت خادمه... هذه المعاني التي تنمّ عن عظمة الممدوح من جهة، وعلى بلاغة المادح وتمكّنه من لغته. وإذا كان سيف الدّولة يجزل العطايا للشّعراء بصورة عامّة، فإنّه قد أكرم شاعرنا أيما كرم مقدّراً علمه وثقافته وشاعريّته.

٣. وسائل الازدهار

١. اللغة العربيّة:

كانت اللغة العربيّة عاملاً من عوامل الازدهار في العصر العبّاسي، إذ إنّ الاهتمام بها وبدراستها ووضع التّصنيفات فيها كان مظهراً من مظاهر التّقدّم الفكري والأدبي في ذلك العصر، وقد اهتمّ ((العرب بعلوم اللغة ؛ لأنّها الوسيلة لفهم القرآن ولحاجتهم لتعلّم القواعد الصّحيحة لهذه اللغة بعد أن بدأ المسلمون من غير العرب يهتمّون بهذه اللغة وأدرك العلماء المسلمون أهمّية اللغة لاستيعاب علم الفقه)).[2]

وقد انتشرت في العصر العبّاسي المدارس النّحويّة، متمثّلة بمناهج مدرستي الكوفة والبصرة، وأفكارهما، إلى جانب المدرسة البغداديّة التي جمعت بين المدرستين، وكانت مدرسة البصرة أساس بناء النّحو العربي وصوغه، إذ اعتمدت عليها بقيّة المدارس مع شيء من الاختلاف ((من حيث بسط القياس وقبضه ومن حيث الاتّساع في الرّواية ومن حيث وضع بعض المصطلحات الجديدة، ومن حيث تلقيب بعض العوامل والمعمولات)).[3]

كما انتشر الاهتمام بالكتابة ولا سيما في القرن الرّابع الهجري عصر المتنبّي، إذ كانت الكتابة ((أضفى أسلوباً، وأبعد فكراً، وأوضح منطقاً. وتناولت أغراض الشّعر المألوفة من المدح والهجاء والغزل والوصف والمواعظ وغيرها. فاتّسع المجال في النّثر لذوي الأفكار الثّاقبة والقلوب الفيّاضة، تخلّصوا فيه من الأوزان والقوافي، ولكنّهم حملوه بالتّعتيم والسّجع فنبغ في هذا القرن أئمّة الكتّاب في المشرق والمغرب....)).[4]

ويمكن لنا هنا أن نتوسّع في الحديث عن علماء العربيّة في ذلك العصر، فقد اهتمّ ((الخلفاء العبّاسيّون بالدّين واللغة اهتماماً بالغاً، وكانوا يحرصون على تعليم أبنائهم اللغة العربيّة والعلوم الإسلاميّة، فالمفضّل الضّبّي معلّم المهدي، وله اختار مجموعته الشّعريّة الملقّبة بالمفضّليات، و(الكسائي) معلّم الرّشيد وابنيه الأمين والمأمون، و(قُطرب) مؤدّب الأمين وأبناء (أبي دُلف العجلي) قائد المأمون المشهور، وعلي بن المبارك الأحمر أحد مؤدبي الأمين)).[5]

([1])البرقوقي ، شرح ديوان المتنبّي، ص١٢٢٤.

([2])التّميمي، أزهار، أماكن التّعليم في العصر العباسي الأوّل، مجلّة التّراث، سلطنة عمان، ٢٠١٩، ص٥١.

([3])ضيف، شوقي، المدارس النّحويّة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٥٨.

([4])الجندي، عائشة، أثر الأقدمين في شعر أبي الطّيب المتنبي، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان، السّودان، ٢٠٠٦، ص٢٩.

([5])فيض، محمد، أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان، ص٤١.

ومن هؤلاء العلماء كما أسلفنا المفضّل بن محمّد الضّبّي من كبار علماء الأدب في الكوفة، وكان بالصّدق وكمال الوثوق، أخذ عنه أبو زيد الأنصاري من البصريّين لثقته به، والمفضّليات وهو قرابة مئة وثلاثين قصيدة جمعها للخليفة المهدي.[1]

ومنهم الخليل بن أحمد الذي ذكرنا وضعه لمعجم العين آنفاً، وهو تلميذ أبي عمرو ابن العلاء، وأستاذ سيبويه، وشيخ علماء اللغة في البصرة.[2]

ولعلّ أهمّهم عليّ بن حمزة الكسائي، وأصله من فارس، وهو من أشهر نحاة الكوفة، أخذ النّحو عن معاذ الهرّاء، وأبي جعفر الرّؤاسي في الكوفة، وعن الخليل في البصرة، وقدّمه الرّشيد والبرامكة، وتأدّب عليه الأمين والمأمون.[3]

وعلى صعيد الأدب ((اتّسع مجال القول على صعيد الشّعر والنّثر في أدب العصر العبّاسي، تبعاً لاتّساع مناحي الحياة وتشعّبها في هذا الطّور المتألّق من حضارة العرب. وتكاثرت الموضوعات التي تناولها الشّعراء فضلاً عن الأغراض الشّعريّة التي نظموا فيها.. وأوغل شعراء هذا العصر في وصف الأيك والحمائم، والرّياض والحياض، والازهار والثّمار.. وكان لوصف المدن والمنشآت العمرانيّة حيّز آخر في قصائد الشّعراء الذين عاش معظمهم في الحواضر، وعرفوا حياة البلاط ومجالس الأمراء، فوصفوا القصور والرّياض وكثيراً من مظاهر الحضارة الجديدة ومناحي الحياة المستحدثة.. ولعلّ في طليعة ما طرأ على معاني الشّعر العبّاسي من تطوّر، على صعيد آخر، أنّها جنحت للرّقة والعذوبة، بفضل غلبة الحضارة وانصقال الأذواق، كما اتّسمت في جانب منها بالابتكار والعمق، تبعاً لنضج العقل العربي وتوسع آفاقه. كذلك امتازت معاني الشّعر بالجدّة والطّرافة بعد أن قيّض لها شعراء أفذاذ عرفوا بقوّة فنّهم وشدّة براعتهم وسعة ثقافتهم.. وتجلّى الإبداع الشّعري في هذا العصر من خلال اختراع المعاني وابتكار الصّور ونفاذ الرّؤية...)).[4]

وقد ((نهل شعراء هذا العصر من العربيّة حتّى ارتووا، وحفظوا من عيون الشّعر العربي القديم والجديد، وعاشوا في وقت ازدهار اللغة وعنفوان مجدها، لذلك كلّه فقد هجروا الشّعراء الألفاظ الغريبة والوحشيّة، وابتعدوا عن التّراكيب الغامضة والعبارات الملتوية وقلّ أن يحتاج المرء إلى معجم حين يقرأ لشاعر من الشّعراء ليكشف عن معنى اللفظ أو الهدف من التّركيب ..فالشّاعر العبّاسي ظلّ محافظاً على عربيّته في أسلوبه المولّد الذي يميل إلى الرّقّة والسّهولة والوضوح، مع جودة السّبك وإبداع المعنى، وقد نشأ هذا الأسلوب بدافع التّحضير في العصر العبّاسي، وهو أسلوب يقوم على أساس من القديم وعدّة من الذّوق الحضري الجديد، أسلوب يحافظ على مادّة اللغة ومقوّماتها ويلائم بينها وبين حياة العبّاسيّين المتحضّرة، فتنفي الألفاظ العامّية المبتذلة، كما تنفي الألفاظ الغريبة والوحشيّة)).[5]

٢. دور العلم:

إنّ الحركة العلميّة التي سادت في العصر العبّاسي استدعت تأسيس دور للعلم تمثّلت في المدارس والمساجد والجوامع والكتاتيب، إذ أخذت تُلقى الدّروس في المساجد والجوامع ويشارك الأمراء وكبار رجال الدّولة في إقامة خزائن الكتب التي يفد إليها الرّاغبون في التّحصيل والمعرفة.[6]

كما انتشرت حوانيت الورّاقين الذين كانوا مصدراً من مصادر الثّقافة في ذلك العصر، ولم يكونوا ((مجرّد تجّار ينشدون الرّبح وإنّما كانوا في أغلب الأحايين أدباء ذوي ثقافة يسعون للذّة عقليّة من وراء الحرفة التي كانت تتيح لهم القراءة والاطّلاع وتجذب لدكاكينهم العلماء والأدباء)).[7]

وفي بحثنا هذا فإنّنا نذكر أهم دور العلم مرتّبة بحسب تسلسلها الأكاديمي، بدءاً بالأكثر نظاماً واستيعاباً للفروع العلميّة ونعني المدارس، وانتهاءً بالكتاتيب التي تعد الشّكل الأوّلي لدور العل في الحضارة الإسلاميّة.

المدارس:

ظهرت المدارس للوجود ((عندما بدأت الحلقات العلميّة في المساجد تكثر وتتّسع وكثرة الحلقات أدّت إلى كثرة المناقشات والمناظرات والحوار والجدل، الأمر الذي أدّى بالمسجد أن يبتعد عن أداء مهمّته الأساسيّة وهي العبادة، حيث سبّب التوسّع في النّقاش والحوار إزعاجاً للذين يقومون بالعبادة وأداء واجباتهم الدّينيّة، أدّى هذا الأمر إلى البحث عن إيجاد مكان بديل للدّراسة والتّعليم وما يصاحب ذلك من نقاش وحوار حتّى يبقى المسجد في جلال ووقار وهدوء، وهذا المكان البديل هو الذي عرف فيما بعد باسم المدرسة)).[8]

وأهم ما يميز المدرسة من حيث البناء العمراني:[9]

احتواؤها على قاعات للمحاضرات.

([1])السّيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمود مصطفى، دار الفجر للتّراث، القاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص٢٠١.

([2])بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ترجمة: عبد الحليم النّجّار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ج٢، ص١٣١.

([3])ابن النّديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ص٤٤.

([4])عمر، ياسمينة، خصائص الشّعر في العصر العباسي، مجلة وادي النيل، ع٨، ٢٠١٥، ص٣١٠-٣١١-٣١٢.

([5])عمر، ياسمينة، خصائص الشّعر في العصر العباسي، مجلة وادي النيل، ع٨، ٢٠١٥، ص٣١٧- ٣١٨.

([6])حسين، شلوف، حسين، شلوف، شعر الحكمة عند المتنبي بين النّزعة العقليّة والمتطلبات الفنّيّة، رسالة ماجستير، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٦، رسالة ماجستير، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ٢٠٠٦، ص٤٨.

([7])شلبي، أحمد ، تاريخ التّربية في الإسلام، مكتبة الأنجلو المصريّة، ط٢، ١٩٦٠، ص٩٠.

([8])العيساوي، محمد، المدارس النّظاميّة في بغداد ودورها في الفكر العربي الإسلامي، جامعة تكريت، مج٧، ع٣٤، ٢٠١١، ص١٥٦.

([9])العيساوي، محمد، المدارس النّظاميّة في بغداد ودورها في الفكر العربي الإسلامي، ص١٥٦.

احتواؤها على مساكن للطلاب الذين يتلقّون العلم فيها، ومساكن للأساتذة فضلاً عن عدد من المرافق الأخرى كالمطابخ وحجرات الطّعام..
احتواؤها على مسجد للطّلّاب، ومكتبة لاستعمال الطّلّاب والأساتذة، فضلاً عن بعض المدارس التي كانت تحتوي ملاعب للرّياضة.
وقد بنيت كثير من المدارس في ذلك العصر، نذكر منها:[1]

- مدرسة حسّان بن محمّد المعروف بابن الوليد النّيسابوري قبل سنة٣٤٩هـ.
- مدرسة ابن حيّان التّميمي ٣٥٤هـ.
- مدرسة الصّاعديّة قبل ٤٠٢هـ, وغير ذلك من المدارس.

ومن أهم المدارس في العصر العبّاسي نذكر المدرسة النّظاميّة، إذ ((اهتمّ نظام الملك بشؤون التّعليم والثّقافة فأسّس المدرسة النّظاميّة التي عرفت باسمه..وقد بلغت تكاليف إنشاء نظاميّة بغداد ما يقارب ستّين ألف دينار. وكان ينفق على أساتذتها والسّتة آلاف طالب فيه خمسة عشر ألف دينار في السّنة من أصل ستمائة ألف دينار كان ينفقها على مدارسه العديدة)).[2]
ومن أشهر المدارس في العصر العبّاسي (المدرسة المستنصريّة)؛ إذ ((دام العمل فيها بجد ونشاط قرابة ست سنوات بلغت النّفقة عليها خلالها سبعمائة ألف دينار وهو مبلغ ضخم إذا عرفنا القوّة الشّرائيّة للدّينار آنذاك بحيث كان أعلى موظّف فيها يتقاضى اثني عشر ديناراً. وقد تولّى عمارتها أستاذ الدّار مؤيّد الدّين أبو طالب محمد وافتتحت في الخامس من شهر رجب سنة (٦٣١هـ/ ١٢٣٣م) أي قبل إتمام مرافقها بسنتين وكان هذا التّاريخ بداية التّدريس فيها)).[3]
وقد اتفق المؤرّخون ((على وصف هذه المدرسة وذكروا جميعاً أنّها جاءت في غاية الحسن، واتّفقوا على أنّها لم تكن مدرسة أو كليّة عاديّة مثل غيرها من المعاهد المشهورة قبلها أو في عصرها، بل كانت بمثابة جامعة تضمّ مدرسة الفقه على المذاهب الأربعة، كما تضمّ دار القرآن ودار الحديث ومدرسة الطّب والمكتبة فضلاً عن تدريس مواد الأدب العربي والعلوم الرّياضيّة فيها)).[4]
وبذلك كانت هذا المدرسة ((جامعة إسلاميّة كبرى لتدريس علوم القرآن الكريم والفقه الإسلامي والحديث النّبوي واللغة العربيّة والطّب والرّياضيات، وهي مع ذلك تعتبر أول مدرسة عرفتها الدّولة الإسلاميّة خصّصت لتدريس فقه المذاهب الأربعة، فأراد الخليفة بذلك أن يجمع تلك المذاهب في مكان واحد ويزيد من تقاربها، وأن يجعل المدرسة في حماية الدّولة ومفتوحة لجميع النّاس، كما وضع نظاماً دقيقاً لتحديد عدد المدرسين والطّلّاب والقائمين على رعاية شؤونها وتوفير مستلزمات الدّراسة والجوّ العلمي المناسب فيها)).[5]
المساجد والجوامع:
إنّ المسجد ليس مكاناً للصّلاة فحسب، و((لم يكن في صدر الإسلام مكاناً للسّجود فحسب، ولم يكن بمعزل عن الحياة وتطوّرها ورقيّها، بل كان المسجد يلتحم مع المجتمع؛ ليقدّم له النماذج الطّيّبة من العناصر الصّالحة التي تربت بين جدرانه، ونشأت في محيطه، وشربت من رحيق الإيمان الصّافي)). [6]
كما كان الدّور الأهم للمسجد أن يكون داراً من دور العلم، يقصدها من يريد مقابلة العلماء، و((المساجد تظلّ في العادة مفتوحة الأبواب طوال النّهار، يؤمّها كلّ مسلم صالح أو زنديق، ليتوضّأ أوليصلّي أو ليستريح، وهناك تحت سُقُفها الظّليلة كان المدرّسون يعلّمون التّلاميذ، والقضاة يفصلون في الخصومات، والخلفاء يعلنون سياستهم أو أوامرهم، وكان النّاس يجتمعون فيها ليتحدّثوا في كلّ ما يعنيهم)).[7]
أي إنّ المسجد كان مكاناً مفتوحاً لجميع أفراد المجتمع، ولمختلف العلوم والأغراض، ((فحلقة لفقيه، وحلقةٌ لمحدث، وحلقة لقاص أو لمفسّر، وحلقة لنحوي، وحلقة لمتكلّم)).[8]
ولم يقتصر "دور المسجد العلمي على احتوائه على مجموعة علماء العصر، وعلى ما تضمّه المكتبات بداخله من كتب ومجلّدات وقراطيس، بل كان المسجد أيضاً منبراً مهمّاً للنّدوات الشّعريّة، فلقد كان الشّعراء يستغبّون اجتماع النّاس في المسجد، وينشدون أشعارهم التي يمدحون بها من يمدحون، أو يهنّئون بها من يهنّئون..".[9]

([1])المصدر نفسه، ص١٥٧.
([2])المصدر نفسه، ص١٥٦.
([3])إبراهيم، عمار، الخليفة العبّاسي المستنصر بالله (٦٢٣-٦٤٠هـ/ ١٢٢٦- ١٢٤٢م) وأهم المنجزات العمرانيّة في عصره، الجامعة العراقيّة، كليّة الآداب، ع٣٦، ص٤٥٧.
([4])المصدر نفسه، ص٤٥٨.
([5])المصدر نفسه، ص٤٦١.
([6])عبيد، منصور، مكانة المسجد ورسالته، الدّار العربيّة للكتاب، ص٢٨.
([7])ديورانت، قصّة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، الإدارة الثّقافيّة في جامعة الدّول العربيّة، ١٩٧٤، ط٣، ج١، مج٤، ص١٢٠.
([8])ضيف، شوقي، العصر العبّاسي الأوّل، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٦، ط١٤، ص١٠١.
([9])فيض، محمد، أثر الحكام وثقافتهم في تطور الأدب في العصر العباسي، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان، ص٥٨.

ومن ثمّ فإنّ من لمع نجمه عالماً كان، أو فقيهاً أو شاعراً، فإنّه قد يصل من المسجد إلى دار الخلافة، بمعنى أنّ المسجد كان درجة من درجات الارتقاء العلمي، ((وليس من شكّ في أنّ هذا الصّنيع كان من أهم الأسباب في ازدهار الحركة العلميّة بالمساجد، إذ كان من بزغ نجمه في حلقاتها لا يلبث أن يستدعى إلى دار الخلافة أو دار الولاية أو دور أحد الوزراء، فإذا العطايا تفرض عليه وإذا الرّواتب تفرض له شهريّاً)).[1]

الكتاتيب:

وهي مواضع تعليم الصّبيان[2]، تمثّل مؤسّسة تعليميّة يعود تاريخها إلى عهد النّبي صلّى الله عليه وسلّم[3]، واستمرّت في عصر الخلفاء الرّاشدين وعصر الدّولة الأمويّة وعندما جاء العصر العبّاسي ((كان من الطّبيعي أن يتزايد عدد هذه الكتاتيب بحكم فترة الازدهار العلمي التي ميّزت العصر العبّاسي الذي أصبحت فيه بغداد مقصداً لطلاب العلم)).[4]

وقد كثرت الكتاتيب، ((وهذه الكثرة تعدّ انعكاساً لثقافة هذا العصر ووعي المسلمين بأهمّيّة تعليم أولادهم استجابة للأوامر الدّينيّة من جهة وللضّرورات الحياتيّة من جهة أخرى، فالخلفاء العبّاسيّون شجّعوا العلم وقرّبوا العلماء ممّا شكّل حافزاً مهمّاً للاتّجاه للتّعليم)).[5]

٤. الاستنتاجات

حاولنا في هذا الفصل رصد أهم عوامل ازدهار الحياة الفكرية والأدبيّة في العصر العباسي، وقد تمثّلت في عوامل عدّة، لعلّ أهمّها: ازدهار الحياة الاقتصاديّة، إذ إنّ الرّخاء الاقتصادي ساعد على الاهتمام بالعلم والعلماء والأدب والأدباء، كما سهل إشادة دور العلم والاعتناء بها، وأمّا العامل الثّاني فقد تجلّى من خلال العوامل الدّينيّة، إذ إنّ اهتمام العرب بدينهم حرّضهم على الاهتمام بالحياة الفكريّة والأدبيّة ووضع العلوم والمؤلّفات لخدمة دينهم.

ومن جانب آخر مثّل ازدهار حركة الترجمة جانباً آخر من هذه العوامل، إذ ساعدت على نقل المعارف والثّقافات الأخرى إلى العربيّة وهذا ما دفع عجلة الفكر والأدب إلى الأمام. وبفعل هذه التّرجمات حدث امتزاج الثّقافات في العصر العبّاسي، هذا الامتزاج الذي أثّر بالبيئة العبّاسيّة على مختلف الأصعدة ولا سيما الصّعيد الفكري والأدبي، ومن ثمّ فإنّ اهتمام الخلفاء العبّاسيين بالعلم وإغداقهم الأموال على العلماء والأدباء مثّل هو الآخر عاملاً مهمّاً من عوامل ازدهار الحياة الفكرية والأدبيّة.

ومن خلال بحثنا استعرضنا الوسائل التي تمّ توظيفها لخدمة هذا الازدهار الفكري والأدبي، وقد تجلّى ذلك من خلال اللغة العربيّة التي كانت محور البحث الفكري والأدبي في ذلك العصر فوضعت المؤلّفات والعلوم المختلفة في خدمتها، ومن جانب آخر كانت دور العلم أهم وسائل هذا الازدهار، وقد تمثّلت بالمدارس البتي تعدّ الوجه المتطوّر لدور العلم، في حين أنّها من قبل كانت تتمثّل من خلال الكتاتيب التي مثلت أبسط حلقات العلم، ومن ثمّ المساجد التي جمعت بين العلم والدّين.

Conflicts Of Interest

The author declares no conflict of interest in relation to the research presented in the paper.

Funding

The author's paper explicitly states that no funding was received from any institution or sponsor.

Acknowledgment

The author would like to express gratitude to the institution for their invaluable support throughout this research project.

References

[1] Al-Qaisi, M. (2021). *Naqd nazari li-diwan "Ta'ati hijaab al-shams" li-sha'ir Adnan Latif al-Hali*. Al-Finique Association.

[2] Ta'aba, S. (2020). *Al-lugha al-ramziya wa-tajalliyat al-mawadhi' al-insaniya fi shi'r Amal Dunqul*. *Journal of Linguistic Practices*, 12. https://asjp.cerist.dz/en/article/154270

[3] Slimani, I. (2013). *Al-naz'a al-insaniya fi shi'r Rashid Ayub: Dirasat fi diwan "Aghani al-darwish"*. Algeria.

[4] Al-Sha'ar, A. (2016). *Al-naz'a al-insaniya fi al-shi'r al-mu'asir fi Filastin wa-Urdun, 2000–2010*. noor-book

---

(1)ضيف، شوقي، العصر العبّاسي الأوّل ، ص١٠٢.

(2)ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، ٤٢٢.

(3)البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: صلاح الدّين المنجد، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، د.ت، ص٦١١.

(4)التّميمي، أزهار، التّميمي، أزهار، أماكن التّعليم في العصر العباسي الأوّل، مجلّة التّراث، سلطنة عمان، ٢٠١٩، مجلّة التّراث، سلطنة عمان، ٢٠١٩، ص٤٩.

(5)المصدر نفسه، ص٤٩.

[5] Al-Khatib, A. (2011). *Al-ightirab wa-al-huzn fi al-shi'r al-'Arabi al-hadith: Dirasah tatbiqiya fi shi'r Mahmoud Darwish*. Dar Al-Mada.
[6] Al-Faqih, N. (2017). *Tajalliyat al-huzn fi al-shi'r al-jahili: Dirasah tahliliyah*. *Majallat Kulliyat al-Adab, Jami'at al-Qahira.*
[7] Al-Sadiq, R. (2014). *Al-alam wa-al-ightirab fi al-shi'r al-'Arabi al-hadith: Dirasah fi shi'r Nizar Qabbani*. Dar Al-Hilal.
[8] Dunqul, A. (2003). *Awraq ghurfat raqm thamaniya*. Dar Al-Shorouk. noor-book
[9] Abdu, S. (2005). *Al-huzn fi al-shi'r al-'Arabi al-hadith: Dirasah tahliliyah*. Dar Al-Fikr Al-'Arabi.